مناقشات

علم التاريخ بين الهواية والاختصاص

بقلم عبد الهادي الكرادي

تتزايد في الاونة الاخيرة جموع الكتاب الذين يتطوعون لابداء رايهم في قضايا التاريخ الاسلامي ، مع ازدياد الاهتمام بالتراث ، والعناصر التقدمية فيه على وجه الخصوص . وبسبب الاغراء الذي تثيره المسائل التراثية من الكثير من الكتاب الى معالجتها بلهجة المحترف المختص ولكن دون ان يمتلكوا خلفية وافية تخولهم حق اصدار القراءات في هذه المسائل الشائكة .. تضم هذه المجموعة من الكتاب صحفيين ومسرحيين ونقاد ادب وكتاب سياسة لم يسبق لهم معاناة الدراسة التاريخية ولم يصرفوا الجهد الكافيء لدراسة اصول تفسير التاريخ ومراجعة المصادر التي تتميز ـ بالنسبة لتاريخ العرب والاسلام ـ باتساع هائل الى الحد الذي لا يسمح بالاحاطة دون التفرغ والتخصص، وهي مهمة قاصرة على المؤرخ المحترف ، الذي يجد من الاستعداد والقدرة على المثابرة ما يمكنه من تحمل المشاق التي تقتضيها مراجعة الاف المطبوعات والمخطوطات المتناثرة في مكتبات الشرق والغرب . من اجل ان يمتلك الاحاطة بمصادر بحثه ويكون على اتصال مباشر بالقضايا التاريخية التي يروم معالجتها .

ان الموجة الجديدة من الكتابات التاريخية تعتمد في الغالب على عدد محدود من المصادر القريبة التناول التي لا تثير قراءتها ضجرا لدى كتاب الصحافة ونقاد الادب ، وعلى اساسها يكون الكاتب وجهة نظر يشعر معها بان له حق التدخل في مشكلات على جانب كبير من التعقيد. وتاتي النتيجة اكواما من الاحكام الانطباعية يضعها الكاتب في مقابل الدراسة المتعمقة القائمة على التخصص والمعاناة .

دفعني الى تسجيل هذه المقدمة تعقيبات للسيد سامي خشبة نشرت في العدد السابق من مجلة الاداب حول بعض المؤلفات التاريخية التي صدرت اخيرا في مصر . والسيد خشبة ناقد ادبي ومسرحي معروف ولم تسبق له ممارسة الكتابة في التاريخ وهو لا يملك ـ كما يستدل من تعقيباته هذه ـ احاطة بالمصادر ومعرفة باصول دراسة التاريخ تسمحان له بالتدخل في هذه المشكلات . لقد توقف الكاتب على حدود منهج انطباعي يعتمد على مجموعة منتقاة من المصادر القديمة والدراسات الحديثة واصدر احكاما تحتاج الى وقوف طويل قبل ان تستجيب للحسم واليقين اللذين كتب بهما السيد سامي . وساشير الى الامور التالية كدليل على هذا المنهج المبتسر :

١ ـ قال الكاتب ان ابن ابي الحديد شيعي متطرف وانه اختلق بهذا الدافع بعض الاخبار التي يقصد منها تزكية علي بن ابي طالب في صراعه ضد معاوية . وهو هنا يعني رأيا لابي جعفر الاسكافي حول بعض الاعتبارات الاقتصادية التي تدخلت في الصراع . وقد فاته ان ابن ابي الحديد معتزلي لا شيعي ولكنه كان من ضمن المعتزلة الميالين الى علي وربما كان ذلك تحت تاثير راعيه ابن العلقمي . وبسبب شرحه لنهج البلاغة واتجاهاته المماثلة لعلي وصفه احمد امين بانه « شيعي معتدل » وهو اقصى ما يمكن ان يوصف به مؤرخ معتزلي حاول الدفاع عن علي ابن ابي طالب دون ان يظهر ميلا للانتقاص من خصومه التقليديين : الخلفاء الراشدين والصحابة كما يفعل الشيعة في المعتاد . ومن المحتمل ان السيد سامي خشبة اطلق هذا الوصف على ابن ابي الحديد قبل ان يكمل قراءة شرحه المطول لنهج البلاغة لياخذ فكرة صحيحة عن موقفه الاعتقادي .

اما راي الاسكافي فهو ليس النص الوحيد الذي تحدث عن الاعتبارات الاقتصادية في الصراع بين علي ومعاوية . ولو اتيح للسيد خشبة ان يتوسع قليلا في دراسة تاريخ صدر الاسلام لوجد من الاثار والروايات حول هذا الموضوع ما يتجاوز اطار الشيعة والاسكافي وسيغنيه ذلك عن اتهام ابن ابي الحديد بصنع خبر له ما يماثله في العديد من المصادر العربية التي تناولت تاريخ الخلفاء الراشدين وصور الاسلام وتواريخ الفرق .

٢ ـ يقول سامي خشبة جازما ان نهج البلاغة من تاليف الشريف الرضي . وهذا الرأي ماخوذ من بعض المستشرقين الذين اعتمدوا على رواية ترجيحية لابن خلكان . وهو يرجع الى عدم الاطلاع على اصول نهج البلاغة في المصادر التي تسبق الشريف الرضي . ولو اتيح للقائلين بهذا الرأي ان يتعرفوا هذه الاصول لامتنعوا على الاقل عن اتهام الشريف الرضي بتاليفه ولبحثوا عن مؤلفين اخرين يسبقونه بزمن اطول . ولمراجعة اصول نهج البلاغة في المصادر السابقة للرضي احيل الكاتب الى : كتاب مصادر نهج البلاغة واسانيده لعبد الزهراء النجفي وهو في اربع مجلدات والى بحث للكاتب الهندي امتياز علي عرشي بعنوان : استناد نهج البلاغة نشرت ترجمته العربية في مجلة ثقافة الهند لعام ١٩٥٧ . وهناك اشارات حديثة حول نهج البلاغة يتعين الرجوع اليها اذا اريد تكوين وجهة نظر متكاملة تستند على اساس علمي وهي متفرقة في مباحث المؤرخين المعاصرين يمكن للباحث ان يعثر عليها من خلال قراءاته .

٣ ـ عبر الكاتب عن شكه بكل ما في المصادر العربية الى الحد الذي يستحيل معه القيام باي بحث تاريخي بالاستناد الى هذه المصادر. ان هذا التشكيك هو في الحقيقة من نتائج الاطلاع على دراسات مجموعة معينة من المستشرقين الى جانب اننا نلمح فيه اثرا للفكرة العامية التي تقول (ان التاريخ كله كذب) وان المؤرخين القدماء كتبوا كلهم لارضاء السلطة . من الواضح ان المصادر العربية هي المرجع الوحيد لدراسة تاريخ الحضارة الاسلامية وعن طريقها وحدها استطعنا معرفة هذا التاريخ ، وبالاستناد اليها يتكلم المشككون فيها ، لانهم لا يملكون اي وسيلة اخرى على الاطلاق . ترى ماذا سيكون لو اردنا الغاء هذه المصادر بهذا الاسلوب الاعتباطي ؟ بالتاكيد اننا سنضطر الى الغاء هذه المرحلة من تاريخ البشرية وانكار وجودها التاريخي اصلا . وهذه نتيجة يمكن ان يصل اليها التشكيك في المصادر العربية تبعا للطريقة السائدة بل هي قد تجلت جزئيا في احكام غريبة اصدرها المستشرقون من وراء ظهر المصادر ، من ذلك مثلا انكار وجود محمد واعتباره شخصا وهميا اخترعه الامويون لايجاد سند ديني لحكمهم ومن هذا القبيل انكار تاريخ الامويين والادعاء بانه غير معروف ، استنادا الى ان التاريخ كتب في ظل العباسيين وهم خصوم الامويين (تاريخ الطبري كتب في ظل العباسيين وفي عاصمتهم بغداد) وقد كرس للامويين منه ما مجموعه مجلدان وللعباسيين مقدار مقارب اي بالمناصفة بين العباسيين واعدائهم ؟) ومنها ايضا انكار وثائقية القرآن . والقائمة تطول . والواقع ان التشكيك في المصادر يتيح للباحث الطعن في اي حادث او رواية يحربه لا يقيدها سوى مزاجه الشخصي . وقد عانى التاريخ الاسلامي من هذه الانتهاكات الشيء الكثير .

ان تحقيق وثائقية المصادر العربية هو بحد ذاته احد فروع علم التاريخ الاسلامي وهي مهمة تخرج عن اختصاص السيد سامي خشبة ما لم يتفرغ لدراستها وفق الاصول المتبعة في هذا الفرع .

ارجو ان تكون هذه الملاحظات كافية لحجب الكتاب عن استسهال دراسة التاريخ الاسلامي الى هذا الحد ، ودفعهم الى احترام حدود الاختصاص .

بغداد